نساء يعدن بناء التراث في حمص

في مدينة حمص القديمة، حيث مزّق الصراع المجتمعات وأسكت المساحات الثقافية، يترسخ نوع جديد من التعافي. تستخدم مؤسسة تراثنا - العضو في منظمة INTOفي سوريا، التراث الثقافي كأداة فعّالة للشفاء والتعلم وإعادة البناء.

كانت إحدى أبرز المبادرات الرائدة، دورة "إدارة مشاريع التراث الثقافي للنساء" التي استمرت 12 يوماً، وعُقدت في أكتوبر ونوفمبر 2025. جمعت الدورة 28 امرأة من مختلف أنحاء حمص، لكل منهن تجارب حياتية ومعتقدات وأعمار ومهارات وتطلعات مختلفة، ما يعكس تنوع المدينة.
وما جمعهن هو رغبة مشتركة في إعادة بناء أنفسهن ومجتمعهن والتراث الثقافي الذي يُمثل ركيزة أساسية لكليهما.

متجذرة في المناخ والثقافة والمجتمع:

استكشف البرنامج الروابط العميقة بين تغير المناخ والتراث الثقافي وقدرة المجتمعات على الصمود. وتعرفت المجموعة على تاريخ حمص، والإشراف البيئي، وتحديات المناخ، وريادة الأعمال، إلى جانب مواضيع بناء السلام والدعم النفسي والاجتماعي.

إن مسرح الغسانية (مسرح حمص الأول) الذي تم ترميمه، قد أصبح بمثابة مكان للتعلم ورمز في آن واحد. نهض من بين الركام ليُظهر ما يمكن أن يكون ممكناً

"عندما نعرف تراثنا ونرممه، فإننا نرمم أنفسنا"
- لمى عبود، تراثنا

لقد لاقت هذه الرسالة صدىً عميقاً، لا سيما عندما استكشفت النساء الكنائس والمساجد والمنازل التراثية ومعالم المدينة، وتعرفن على مدى ترابط قصص مجتمعهن. وقد شاركن قصصاً عن المصلين المسلمين وهم يصلّون في الكنائس أثناء الأزمات، وعن التعايش بين الأديان على مدى قرون، وهذا تذكير حيّ بأن التراث في حمص كان دائماً إرثاً مشتركاً.

حيث يلتقي الألم بالقوة: قصص عن الصمود

كشفت جلسة مؤثرة حول "الضغوط النفسية وحل النزاعات وبناء السلام" عن الحالة النفسية التي تحملها النساء معهن. وأظهرت شهاداتهن ثقل التاريخ السوري الحديث، ولكن أيضاً الصمود الاستثنائي الذي شكّله هذا التاريخ.

روت إحدى النساء قصة فقدانها لمنزلها، واختطاف زوجها وابنها. ومع ذلك، عندما عادت إلى ما تبقى من منزلها، أنشأت مشتلاً للنباتات، ملاذاً أخضر في ظلّ الفقد، وشريان حياة مكّن عائلتها من البقاء. فتحت قصتها المجال أمام الآخرين لمشاركة معاناتهم.

وصفت امرأة أخرى كيف كانت تعتني بزوجها المريض بشدة بينما كانت تكافح في الوقت نفسه لتحقيق رغبتها في الاستقرار والاستقلالية ومستقبل تصنعه بنفسها.

أصبحت هذه التبادلات الإنسانية العميقة لحظات شفاء جماعي.

أدركتُ أن معاناتي لم تكن معاناتي وحدي. عندما تحدثت، شعر الآخرون وكأنهم يشاركونني قصتي، وهذا ما منحني القوة من جديد.
- اقتباس من أحد المشاركين

اكتشفت المجموعة أن الألم المشترك يمكن أن يصبح أساساً للتضامن. والتضامن بدوره يمكن أن يصبح أساساً لتماسك المجتمع، وهو أمر ضروري في مرحلة ما بعد النزاع.

التراث كجسر:

مع مرور الأيام، بدأت الروايات الشخصية تمتزج بالتأملات الثقافية. تحدثت المجموعة عن الحرف التقليدية التي علمتهم إياها أمهاتهم، والممارسات الزراعية التي نشأوا عليها، وذكريات الحرف اليدوية المهددة بالانقراض.
أصبح التراث جسراً يربط قصصهم ويمنحهم شعوراً مشتركاً بالانتماء.

وسّعت جولات التراث هذا التواصل ليشمل شوارع المدينة. فبينما كانت النساء يزرن الأسواق القديمة والمعالم الدينية والأزقة التاريخية، لم يرين ما فُقد فحسب، بل رأين أيضاً ما يمكن استعادته. وقد عززت هذه الجولات فكرة أن التراث الثقافي ليس جامداً أو بعيداً، بل هو حيٌّ بفضل الأشخاص الذين يحمونه.

بناء المستقبل: مهارات كسب العيش والقيادة

إلى جانب تعزيز المرونة النفسية والتعلم الثقافي، زودت الدورة النساء بأدوات عملية في ريادة الأعمال والإدارة المالية، وتخطيط المشاريع الصغيرة. وقد قمن بتقييم جدوى المشاريع واستكشاف فرص دخل جديدة قائمة على التراث والاستدامة.

«التراث ليس مجرد ذكرى، بل يمكن أن يكون مصدر رزق»
- اقتباس من أحد المشاركين في الدورة

بحلول الجلسات الختامية، كان كل مشارك قد طور فكرة مشروع، استلهم العديد منها من مفاهيم تراعي المناخ أو تعتمد على الحرف اليدوية. عُرضت أعمالهم لاحقًا في بازار **" حكايا المكان "**، وكانت هذه أول فرصة لهم لعرض منتجات تراثية للجمهور.

مسار مشترك

من خلال القصص المشتركة، والاستكشاف الثقافي، والتعلم عن المناخ، والحوار المجتمعي، اكتشفت النساء أنهن لسن وحدهن، وأن إعادة البناء، مثل التراث، هو عمل جماعي.

أبرزت الدورة ما يلي:

- يمكن للتراث أن يوحد المجتمعات، حتى عبر الاختلافات الاجتماعية والدينية والثقافية
- يُعد الدعم النفسي والاجتماعي ضرورياً لإعادة بناء الثقة والتماسك.
- يمكن للتوعية بالمناخ وحماية التراث أن تجمع بين مجموعات متنوعة تحت هدف مشترك
- إن تمكين المرأة يعزز المجتمع بأكمله، اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

"إن استعادة التراث تعني استعادة الناس، والمرأة هي جوهر هذا التجديد."
- اقتباس

غادرت النساء الثماني والعشرون اللواتي شاركن في هذه الرحلة بمهارات جديدة، وشبكات علاقات جديدة، وثقة متجددة. والأهم من ذلك، أنهن غادرن وهنّ يدركن أن إحياء حمص، بيئتها، وتراثها، وروحها، يبدأ بهن.